



الكتابة عن الكتابة في زمن الفجائع السورية (زهراء عبد الله، إسلام أبو شكير، نغم حيدر، مازن عرفة)

الشائع أنّ الكاتب يحتاج إلى بيئة مستقرة يرسم فيها مصائر شخصيات نصه بعين الرائي البعيد الهادئ، ولكن ماذا عن الكُتّاب والكتابة في حالة الثورة/ الحرب في سوريا، والتي تقترب من عامها الثامن، ما أوصلنا إلى وصف البلاد بـ"الجحيم الأرضي"، بعد سلسلة من الفجائع.

سؤال وجهته "رمان" لأربعة روائيين سوريين ممن مسّتهم نعمة الحرية بعيداً عن سقف الوطن النازف؛ إسلام أبو شكير صاحب «زجاج مطحون» (مقيم في الإمارات)، ونغم حيدر صاحبة «أعياد الشتاء» (مقيمة في ألمانيا)، ومازن عرفة صاحب «الغرانيق» (مقيم في ألمانيا)، وزهراء عبد الله صاحبة «على مائدة داعش» (مقيمة في فرنسا). فكانت هذه الشهادات عن "الكتابة في زمن الفجائع السورية" ..

**إسلام أبو شكير: تحدي الخيال**

الكتابة في النهاية نشاط متصل بالحياة، لذلك فهي متأثرة بها على نحو مباشر، خصوصاً أمام أحداث ومتغيرات عميقة عاصفة من النوع الذي نعيشه ونكابه في سوريا منذ نحو سبع سنوات.

الكتابة عن الكتابة في زمن الفجائع السورية (زهراء عبد الله، إسلام أبو شكير، نغم

حيدر، مازن عرفة)

ساعات  
وأيام



لقد أخذت الحرب الكاتب السوري نحو مناطق جديدة لم تكن في الحسبان. صحيح أننا نعيش منذ عقود على إيقاع الحرب بحكم مجاورتنا لدول عاشت التجربة قبلنا مثل فلسطين ولبنان والعراق، لكنها المرة الأولى التي يجد الإنسان السوري نفسه فيها طرفاً مباشراً في الحرب، ثم إنّ طبيعة الحرب هنا مختلفة من حيث درجة الوحشية التي تجاوزت خيال الكاتب نفسه. شخصياً كتبت عن الحرب قبل أن يكون ثمة حرب، لكنني تناولت الموضوع من زاويته الفلسفية الوجودية التي تقدم الحرب بوصفها صراعاً أزلياً يبدأ بحرب الإنسان مع نفسه وتناقضاتها وميولها وحاجاتها، ولا ينتهي بحربه مع الطبيعة والموت، وقدمت مشاهد كنت أظنها في حينه مفرطة في الخيال، إلى أن جاءت مشاهد الرعب على شكل شلالات من الدم تهدر في الشوارع حقيقة لا مجازاً، فكان ذلك صدمة مروعة لي كإنسان أولاً، وكاتب ثانياً..

بصفتي إنساناً فقد تصدعت الكثير من القناعات الفكرية والسياسية، وأصبحت موضع شك وتساؤل.. وبصفتي كاتباً فقد وجدت نفسي أمام تحديات لم تكن واردة من قبل، وأهمها تحدي الخيال الذي أعد نفسي مغرماً به، إذ بدا لي هذا الخيال ساذجاً مقارنة مع الواقع، فكان عليّ أن أعيد النظر في تجربتي الكتابية، وأبحث عن طريقة أتمكن عبرها من الإحاطة بما يجري، بأدوات ولغة وزوايا نظر مختلفة لا تجاري الواقع فقط، بل تنفذ إلى ما وراء هذا الواقع، حيث



الكتابة عن الكتابة في زمن الفجائع السورية (زهراء عبد الله، إسلام أبو شكير، نغم

حيدر، مازن عرفة)

الجوهر والحقيقة التي يبدو أننا لم نصل إليها في كتاباتنا في المراحل السابقة.

### نغم حيدر: مواجهة جادّة مع الموت

كانت تجربة كتابة الرواية الأولى مختلفةً كلياً عن التجربة الثانية. همومُ الأبطال منحصرةً بإتمام الحياة والتعايش مع نقائضها. حتى أنّ مشاعري تجاه جوّ الرواية وعلاقتي مع الحدث الذي كتبتُه كان لها معنىً مختلفاً. كان الضجيج فيها ضجيج حياةٍ، والمطرُ فصلاً قد ينتهي قريباً وهبوب الرياح في المساء تبدّلاً وتحريكاً لكلِّ ما هو بليدٌ وخامد. كان اللونُ موجوداً بقوةٍ والطعومُ منوّعةً واللذّةُ حاضرة. كان بإمكانني وصفُ الألمِ عن طريق ارتباطه بأشكالِ الحياة وكونه جزءاً منها.



حين عملتُ على مخطوط روايتي الثانية كنتُ في مواجهةٍ جادّةٍ مع الموت. لقد تأكلت التفاصيل وتقلّصتِ الأمكنة وعرفتُ تماماً أنّ لونَ الدّم هو السائدُ الآن. في نفسي كما في الرواية.



الكتابة عن الكتابة في زمن الفجائع السورية (زهراء عبد الله، إسلام أبو شكير، نغم

حيدر، مازن عرفة)

أجلت الكتابة مراراً إذ أنّ الشخصوص ماعادت هي ذاتها. هناك ضحايا يعومون في بركة الموت. هناك ضحايا يُقاتلون الوقت في العُربة. هناك عنفٌ سارحٌ لا يُلجم. وحيث أنني لا أشرع بالكتابة بشكلٍ جدّي إلا بعد أن أساكن الشخصية وأتقرب منها فقد لزمني وقتٌ طويلٌ كي أعاين حجم التغيير الذي حصل وذلك التبدل الصادم في ظروف الحياة.

أعترفُ أنني كتبتُ الكثير وحذفتُ الكثير وأحجمتُ أياماً عديدةً عن الكتابة، غضبي وفزعة ومشوشة. كنتُ أبتعدُ عن العملِ تماماً حين أشعر أنني جُرفتِ معه. وأعودُ حين أكون أكثر ثباتاً أمامه.

هناك آراءٌ عدّة تتعلق بالكتابة في زمن الأزمات. عديدون يرون أنّ الفجيعة تُريك العمل والكتابة عن الحدث قبل انتهائه هي كتابةٌ تفتقر للحكمة، انفعاليّةٌ سطحيّةٌ فوضويّةٌ يظهر فيها تخبط الكاتب وضياعه. قد يكون هذا صحيحاً ولكني لا أرى في ذلك مشكلةً إذا أردنا اعتبار الرواية توثيقاً للأثر النفسي والإنساني للحدث على الكاتب وعلى أبطاله معاً. ومع كثرة الأحداث والقصص والتجارب قد تبدو مهمة الكتابة سهلةً ومادئها جاهزةً ولا تحتاجُ سوى إلى كتابتها. إلا أنني أعتبرها واحدةً من أصعب التحديات. تخيل معي أنك عالقٌ في مكانٍ شديد الظلمة. سوادٌ حالكٌ من حولك. عليك أن تنجو بنفسك من هذا المكان وفي الوقت ذاته تتناكب الرغبة، كلُّ الرغبة بأن تكتب شيئاً يضاهاى ظلمته.

والآن، فإنّ أيّ إطارٍ لعملٍ ما، سيجلب لمؤلفه مشاعر ألمٍ مضاعفة. إنّ الكتابة في زمن الحرب نزيهٌ من نوعٍ آخر.

### مازن عرفة: منفيٌ وأنت في البلاد

تعيش في البلاد، وسط الخراب والدمار، حيث يترصدك الموت المجاني عند منعطفات اللحظات، تعيش منذ أن ولدت وأنت دون كرامة، مسجلاً في تقارير الأمن واحداً من أغنام قطع المسيرات الممجة للإله العجوز الخرف، المشغول بالمرزعة - البلاد، وتوريثها إلى سلالته... فلما لا تشعر بأنك منفي وأنت في البلاد، والمنفى في داخلك، يحاصر الذات والحنين والكلمات.



الكتابة عن الكتابة في زمن الفجائع السورية (زهراء عبد الله، إسلام أبو شكير، نغم

حيدر، مازن عرفة)



تهرب إلى المنفى... لكن عن أيّ منفى تتحدث؟ فالوطن الممزق يلاحقك في داخلك، في كوابيس تعيشها باستمرار. في النهار تعيش في مدن بلا أناس، بلا أرواح، في مدن لا تتلظى لك فيها حكاية حين، فحكايتهك هناك في البلاد... لكن سنابك الجيوش الإنكشارية والغزاة سحقته في صليل النار.

عشت في سجن سوربالي، وقد تحولت بنايتي إلى موقع عسكري لجيش إنكشاري، وطابقها الأول إلى مركز أمني للتحقيق الأولي، تتصاعد منه أصوات المعذبين. بقيت الأصوات في الذاكرة، أما أصحابها فسيظهرون بعد أعوام أسماء في قوائم معتقلين، ماتوا جميعاً بأزمات قلبية، فيما اختفت أجسادهم في محارق، أو أحواض أسيد... أو باعته مافيات الأعضاء البشرية في مزادات دولية عابرة للقارات.

جيوش إنكشارية طائفية تعيش "تعفيش" البلاد، وروحها وحكاياتها، بعقلية "غزوات القبيلة"، ثم يرقصون في الساحات بانتصارات الوهم، على إيقاع أهازيح تمجيد الغزاة.

وجهاديون إسلاميون يتلهون بقطع الرؤوس وحساب عدد الحوريات في جنانهم، فيما لا تتجاوز معظم دويلاتهم بضعة



الكتابة عن الكتابة في زمن الفجائع السورية (زهراء عبد الله، إسلام أبو شكير، نغم

حيدر، مازن عرفة)

أشبار، وهم منتصرون الآن على "الأكراد" الذين كانوا يقصفون البلاد بصواريخهم العابرة للقارات، وطائراتهم الاستراتيجية المنطلقة من أعالي البحار.

لكن لا أحد منتصر إلا جيوش الغرباء الغزاة، الذين توافقوا على اقتسام البلاد، وروحها، والمهزوم فقط هو الدم السوري.

كنت أف على شرفتي التي تطل على البلاد، وأشاهد التظاهرات، التي غيرت شعاراتها من "حرية" إلى "يا لله مالنا غيرك يا الله"، بعد أن لجأ "النظام" إلى استعمال الرصاص ضدّها. كانت الأرض ترتعد بأصواتهم، كي يستيقظ من في "السماء"، لكنه لم يستيقظ... وجاء أصحاب اللحي يفتون "إنه يختبركم، أنتم ابتعدتم عن دينه"... أكثر من مليون قتيل، وضعفيهما من الجرحى والمعاقين والمختفين، وسبعة ملايين مهجر قسري، وتدمير البلاد والحكايات... من أجل "اختبار السماء"، فيما "الغرائيق" تدمر دون "حسابات واختبارات".

الشهادة الروائية في حمأة الموت تأتي معمدة بالدم... من قال أنه ينبغي تأجيل الكتابة حتى تختمر الأحداث، بانتظار نهاية الأفق التاريخي لها، قد نخطئ، ويغدو بطلنا الممجد روائياً "زعيماً جنرالاً" جديداً، أو "أميراً إسلامياً" متجدداً، فمجتمعاتنا لا تستطيع الحياة دون "غرائيق"... ومن قال أن أبطالها، من الأموات في المعتقلات أو تحت البراميل المتفجرة، ومن الغرقى في البحار، والمشردين في مجاهل الحياة، لن يعيشوا سوى ألام موتهم المستمر... فهم لم يحلموا في حياتهم، ولن يحلموا في مماتهم، بأن يكونوا "غرائيق".

زهراء عبد الله: الدم حبرنا..

أنقلُ أقدامي على مهل بين الجُثث الصّرمية في يومياتي، وأركضُ مُتلهفةً لأمسك بقلممي.. هنا تبدأ الخطيئة! أن تكتب وسط الموت، سيكون الدمُ حبرك. لكنني متمسكة بما قاله فرويد: "بدأت الحضارة عندما قام أول رجل غاضب بإلقاء كلمة بدلاً عن حجر".

الكتابة عن الكتابة في زمن الفجائع السورية (زهراء عبد الله، إسلام أبو شكير، نغم

حيدر، مازن عرفة)

روايات  
عن  
الكتابة



الكلمة وحدها من تحمي الحصار من مهدة الحرب المدمرة.. حين بدأت بكتابة روايتي الأولى "على مائدة داعش"، كان العجز يُلازمني. أن أُغير، أن أساعد النساء المختطفات لدى "داعش" بأية طريقة. كنت أبكي أكثر مما أكتب. ثم لم يكن بخاطري بعدها إلا هدف وحيد، أنني أكتب لأجل اللذين سيأتون من بعدي وبعدهنّ، لأعرّفهنّ بما حدث. وحين أنهيت روايتي الثانية التي تتناول عن قرب أوضاع اللجوء السوري من عدة نواحي، أبرزها زواج القاصرات في المخيمات والهجرة غير الشرعية عبر البحر، عرّقتُ.

كتبْتُ لأنقل صوراً عالقة بمخيلتي وضميري، تنخزي كشوكة بإصبعي. لكنني لم أجد حلاً لنجاتهم. لم تكن الكتابة في المرتين سهلة. موضوعان يمتدان إلى عمق الحرب ومخلفاتها، لكل نصّ وطأته القاسية الخاصة به. قد يتحوّل الكاتب، الذي يكتب من أرض المعركة، إلى رسول. ينقل رسالته إلى من لم يهتدِ بعد، يُلقن العقول الحقيقة التي يؤمن بها مهما كانت. بعد تجربتين روائيتين بثّ أستطيع القول إن الكتابة فعلٌ، من أصعب الأفعال التي تعرّف إليها الإنسان ثمّ جرّبها وأحبها رغم تعبها وخطورتها. فأن تكتبَ كلامًا يُضاهي الرصاص فتكًا، وأنت في العراء تحتمي بكل أفكارك وتساؤلاتك وأطروحاتك، التي تركتها حرةً طليقةً بلا جياذ بين صفحات كتابك. وتكون غير مقبولة بشكل عام، تصبح من



الكتابة عن الكتابة في زمن الفجائع السورية (زهراء عبد الله، إسلام أبو شكير، نغم حيدر، مازن عرفة)

المحرمات في زمن الحرب، لأنها قد تعيد إشعال فتيل حَمَد.

إنها بطولة! بطولَةٌ تُحوّل الخطيئة التي أُرْتُكبت خلال الحرب، إلى تميمة مقدسة ما بعد الحرب.. إرثٌ عظيمٌ لكل الأجيال القادمة التي أتمنى لها أن تحيا بسلام، وأن لا تتعرف على الحرب إلا من خلال ما كتبنا.

الكاتب: [رمان الثقافية](#)